عنوان الدرس : حاجتنا إلى المسيح

كود الدرس :les_ak_3

الكاتب : الأب متى المسكين

إن أعظم الإختبارات التى لفتت نظرى بشدة فى بكور حياتى المسيحية ، هو أننى حينما أشعر بحاجتى إلى أشياء كثيرة تنقصنى فى معاملاتى مع الناس أو الكنيسة أو الرهبان ، يبلغ بى الضيق والألم والحزن مبلغاً شديداً يضعف من نشاطى وخدمتى وتأثيرى فى الآخرين ، ولكن بمجرد أن أقترب من شخص يسوع ربى وأحسه وكأنه آت من بعيد بعد غيبة أكون أنا دائماً السبب فى طولها أو قصرها ، أقول حينما استشعره يقترب منى ، يطفر قلبى فرحاً وينجمع عقلى مرة واحدة فيسقط عنى كل إحساس بحاجاتى الكثيرة وعوزى ونقصى ، ويرتفع المسيح فوق أفق حياتى كلها ، حينئذ أراه هو أكثر من كل حاجاتى وأحس بملئه يفيض ويجرف حياتى فى تيار حبه بتسليم يفوق العقل .

كذلك وبنفس المقدار والقوة ، حينما كانت تعصف بى أفكار كثيرة من جهة معاملات الله أو عنايته على المستوى الخاص أو العام وتضيق نفسى فى داخلى جداً حتى الاختناق ، لأنى أود الله دائماً أن يظهر متفوقاً على كل المستويات : مستوى الرحمة تارة ومستوى العدل والتأديب تارة أخرى ، مستوى الأبوة الحانية مرة ومستوى السيادة والنقمة مرة أخرى ، فأظل تتجاذبنى المشاعر المتعارضة دون أى راحة أو سلام ، ولكن بمجرد أن استشعره يقترب منى تهدأ نفسى فى الحال مرة واحدة وتسقط عنى جميع التساؤلات والهموم ، ويظهر المسيح متفوقاً جداً على كل موازين تفكيرنا سواء كانت من جهة رحمتنا أو عدلنا ، أبوتنا أو سيادتنا جميعاً ! .... وفى هذه اللحظات كثيراً ما يعرفنا المسيح بسر مشيئته .

بهذين الإختبارين علمت يقيناً أن المسيح هو حاجة حياتنا الوحيدة التى تنقصنا وأننا إذا بعدنا عنه ازدادت حاجاتنا إلى أشياء كثيرة فى هذا العالم ، وازداد قلقنا جداً من جهة مصير الأمور الخاصة والعامة فى حياتنا .

فلماذا يظهر شخص المسيح هكذا كأنه ملء كل شئ !!

وللأجابة على هذا السؤال يلزمنا أن ندرك أن البشرية تعانى من التوتر والتمزق الكائن فى صميم كيان الإنسان بين المثل العليا للروح وواقع الجسديات وثبت بحسب تاريخ المدنيات والفلسفات والعلوم أنه لايوجد أى أمل فى إقامة حالة صلح " طبيعى بينهما " سواء بتدخل العقل أو الحكمة أو تهذيب المهارات أو مجرد الأوامر والوصايا الإلهية أو حتى التأديب بالعصى !! فبمجرد أن تعصف الغرائز ، تمتد يد الإنسان إلى سلاح التمرد ، التمرد على كل القيم الروحية ، فيصاب الإنسان بعمى روحى مؤقت يجعله يقترف أشنع التعديات حتى ضد نفسه ! .

هنا يظهر المسيح بشريته الكاملة ولاهوته الكامل ، المعجزة العظمى التى صالحت كل الواقع البشرى – من جهة غرائزه وعواطفه وانفعالاته الجسدية فى احتكاكه بالآخرين والزمن وحاجاته ونواقصه وتعثراته الخاصة – صالحه مع المثل العليا الروحية ، أو بالحرى مع الله نفسه ، صلحاً كاملاً ودائماً وأبدياً بآن واحد ، وصلحاً عميقاً متجذراً فى أعماق الإنسان نفسه ، لأن كل ما للمسيح صار ملكاً للبشرية !! .

هنا صار المسيح معجزة الإنسان ومعجزة الله بآن واحد ، معجزة الإنسان وصوله إلى عمق طبيعة الله ومعجزة الله فى دخوله إلى عمق طبيعة الإنسان !! ولكى ندخل فى نور هذه المعجزة ، يلزمنا أن ندرك أن هذا الصلح لا يقوم على نظرية مهما تألفت النظريات ووضع لها آلاف المجلدات ، ولا على مجرد تنفيذ وصايا ، فالصلح الذى أكمله المسيح هو صلح شخصى تم فى المسيح نفسه ، بقدراته هو وليس بقدراتنا نحن ، وكانت نتيجة هذه المصالحة الفائقة للعقل البشرى ، ويكفى أن ندرك أنها بمجرد أن تمت فى تجسد المسيح وصلبه ، شملت البشرية فى شخص يسوع الذى يمثلها لدى الله الآب .

الإنسان تصالح مع نفسه ، لأن الله تصالح فى جسم بشريتنا الذى للمسيح ، الذى أخذه منا ، لذلك نقول بمنتهى الثقة والاختصار أننا تصالحنا مع الله فى المسيح !! هذا الصلح شخصى للغاية ، هو نوع من الوساطة الفريدة التى قام بها هذا الوسيط الوحيد – المسيح – بين الله والناس ، فنشأت عنها قوة جديدة دخلت العالم ، بل دخلت السماء !! .

إن الصورة الأصغر والأضعف فى مسيحيتنا هى محاولاتنا الفاشلة فى تطبيق وصايا يسوع على مشاكلنا اليومية بدون الرب يسوع نفسه ، أما الصورة الأقوى والأعظم فهى أن يدخل " شخص المسيح " حياتنا فتسقط فى الحال كل مشاكلنا ، ونرتفع فى الحال إلى مستوى وصايا يسوع بدون مهارة شخصية على الإطلاق !! المرارة التى يذوقها الإنسان المسيحى فى داخله من جراء التمزق اليومى حينما تصطدم نفسه بوصايا المسيح ويقف عاجزاً تماماً عن اللحاق بها مع أنه يحبها ، هى ناتجة من كونه يحاول أن يصل إلى وصايا المسيح بدون المسيح ، وهذا مستحيل ! ... المسيح وضع لنا الوصية لكى نختبر بها وجوده " إمتحنوا أنفسكم ، أم لستم تعلمون أنفسكم أن يسوع المسيح هو فيكم إن لم تكونوا مرفوضين " (2 كو 13 : 5) ، لذلك يقول الرب " الذى يحبنى يحفظ ، وصاياى " (يو 14 : 21) ، بمعنى أن الذى يحبنى هو الذى يستطيع أن يعمل وصاياى !! .

شخص المسيح أولاً !! وبعد ذلك كل ما للمسيح !

المسيحى مطالب دائماً ، وفى كل لحظة ، أن يعلن مسيحيته لغير المسيحى وللمسيحى بحد سواء ، هذه المطالبة تجعله فى توتر دائم لأنه يتحتم عليه أن يكون على مستوى الحق حتى يراه ويكشفه ، وعلى مستوى الإيمان حتى يتصرف بمقتضاه قبل أن يعلنه ، وإلا أصبح خزياً لنفسه ولمسيحه .

ولكن من ذا الذى يستطيع أن يعلن المسيح ، والمسيح فى قامته شئ لا يمكن بلوغه ؟ فهو قمة كل ما فى السماء وما فى الأرض يجمع كل شئ فى شخصه ؟ ثم فوق ذلك كله هو الصورة المنظورة لله غير المنظور فمن ذا الذى يستطيع أن يعلنه أو يشرحه ؟ عقل الإنسان ؟ أمر مستحيل ، بلاغة ومنطق ؟ أمر مستحيل ، المسيح وحده هو القادر أن يعلن المسيح ، حينما أستشعره يقترب منى ألقى جميع أسحلتى أو هى تسقط كلها من تلقاء ذاتها ، فهو وحده لسان حقى وإيمانى الذى يتكلم فى ، أو حتى دون أن يتكلم فى ، فإنه قادر أن يعلن ذاته بطرق لاحصر لها وبسر لاينطق به ، فشخص المسيح قوة لانهائية تعلن ذاتها فى الإنسان بدون أى جهد من الإنسان ، بل أن جهد الإنسان هو المعطل الأكبر لإستعلان المسيح ، الحاجة فقط ماسة جداً أن نستشعر قدومه لدينا وأن نستقبله بكل كياننا ثم نتركه يتكلم ويعمل فينا .

إعتراض الناس على مسيحيتنا لا يقوم إطلاقاً على شخص المسيح ، ولكنه يقوم على عدم وجود المسيح فى مسيحيتنا ، لو كان المسيح " بلاهوته " كائن فى حياتنا ، ما اعترض إنسان قط على لاهوت المسيح !! الناس عثروا فى المسيح لأننا وضعنا المسيح فى حياتنا جنباً إلى جنب على مستوى الحاجيات الأخرى ، على مستوى السعى لأكل خبز الجسد بل على مستوى المتعة والفسحة والتسلية والعلم

والسياسة ، فظهر المسيح الذى فينا أقل من قامته الحقيقية ألف ألف مرة ، فإن كان المسيح إلهاً ، لزم أن يكون أعلى وأعظم وأسمى من كل شئ فى حياتنا ، بل أعظم من حياتنا .

الحاجة ماسة جداً أن تكون مسيحيتنا هى المسيح نفسه ، وليس مبادئنا أو أطماعنا أو كبرياءنا وخبثنا أو شهوتنا للظهور والتكريم والمجد الدنيوى الباطل ، الذى نخفيه وراء اسم يسوع !! .

الناس لا يكرهون المسيح قط ، المسيح محبوب ، وهو فعلا " ابن المحبة " ، والمحبة ذاتها بكل أعماقها التى يشتهيها كل إنسان ، الناس يكرهون أخلاقنا وسلوكنا وصفاتنا المزيفة التى صنعناها بإسم المسيح كذباً ورياءً .

إن التفريق بين المسيحية والمسيح أصبح اليوم أكثر من كل العصور السالفة ظهوراً فينا بل وصراخاً ضدنا ! لأن سلوكنا وأعمالنا وكلماتنا تخرج مسيحية فقط ولكنها لاتصدر عن المسيح قط ، فهى ليست لها روح المسيح ولا رائحة المسيح الزكية ، لذلك لاتتعجب إن كانت مسيحيتنا غير محبوبة ! .

الحاجة ماسة جداً أن نتوجه إلى شخص المسيح مرة أخرى ليظهر فى حياتنا ، فتخرج نهضة صادقة تتلاشى فيها أعمالنا المزيفة وتظهر أعمال المسيح الحقيقية التى تستطيع أن تشهد له بدون تدخل من عبقرياتنا الميتة ! ... لأن الناس يريدون أن يأتوا إلى المسيح نفسه وليس لأشخاصنا الترابية ، هل يمكن أن نوافق على ذلك ؟ إن المشكلة العظمى التى تعترض طريقنا إلى المسيح هى أننا نمسك بذواتنا ولانمسك بالمسيح ، وعند الخطر أو التعب تظهر أنفسنا ولايظهر المسيح ! .

وأخطر ما فى هذه الضلالة أن أنفسنا تظهر جيدة فى نظرنا ، لذلك لانجد أى حاجة أن نترك أنفسنا لنمسك بالمسيح ، فيظل المسيح الحقيقى مخفياً عن عيون الناس وأسماعهم !! وحتى إذا ظهرت أنفسنا أمام أعيننا أحياناً أنها حقيرة ومخادعة وكاذبة وتعيش فى ضلالة ، إذ تبشر بالمسيح والمسيح غائب عنها تماماً ، فإنها لاتقوى على التغيير ولاتجد القناعة الكافية أن تجازف وتموت ليحييها المسيح لنفسه من جديد ، لأن الحياة لحساب هذا الدهر لذيذة جداً ومعزية للنفس التى تطلب مجدها ... وخصوصاً إذا أضافت إليها أقوالاً مسيحية ، فحينئذ تأخذ صورة المجد النورانى المزيف ولايستطيع أحد أن يكشفها إلا الذين فيهم نور يسوع الحقيقى !! ... متى نؤمن بالآية : " فإننا لسنا نكرز بأنفسنا بل بالمسيح يسوع رباً ، ولكن بأنفسنا عبيداً لكم من أجل يسوع ؟ " (2 كو 4 : 5) .

كم من خدام وكارزين قدموا ذواتهم للناس متخفية فى صورة تعاليم المسيح ، فعثر الناس فى المسيح ووقع اللوم والخزى ليس على أشخاصهم بل على شخص المسيح الضعيف فيهم !! مع أن الذى يشهد للمسيح يتحتم عليه بالضرورة أن يأخذ من المسيح ويعطى للآخرين ، هذه هى روح الشهادة ومعناها ، وهى تتم بتوسط الروح القدس العارف بكل ما للمسيح ويتوق توقاً أن يشهد له فينا كما ينبغى !! ولكن كم مرة أحزنا الروح القدس ومنعناه عن الشهادة عندما جعلنا شهادة يسوع تخدم أمجادنا ومنافعنا الخاصة ؟ الحاجة ماسة أن نتحرر من ذواتنا ، هل نقبل ؟ .

ثم ، من يقرأ سيرة يسوع المسيح ولايشعر فى عمق أعماقه أن المسيح هو أجمل وأوضح صورة لله ؟ فإن كان الله هو كالمسيح ، فالله فعلاً إله محب للبشر حقاً وأب حانى جداً ومقتدر بلا حدود ! " الذى رآنى فقد رأى الآب " (يو 14 : 9) .

إن البشرية ستظل تعيسة حتى تجد الله ، ولن تجد الله إلا فى المسيح ، كان ينبغى أن يجد المسيح فى حياتنا فرصة ليظهر قدرته السرمدية ولاهوته ليؤمن الناس بأنه ابن الله حقاً ليكون لهم به خلاص وحياة أبدية ، وليروا فيه الآب حقاً ، ولكن نحن المسئولون عن تعطيل الإيمان بالمسيح بسبب تقديم ذواتنا بدل تقديم المسيح الحقيقى ، وهكذا تمجدت بشريتنا على حساب لاهوته !! .

إن عمل المسيح الفدائى يتركز فى النهاية فى أن نكون مثله ، نحمل أخلاقه وصفاته ، عندما يملأ حياتنا ويملك علينا ، لا عن طريق التعليم والتهذيب ، ولكن كما يقول القديس بولس الرسول " ليحل المسيح بالإيمان فى قلوبكم " (أف 3 : 17) .

وعندما يحمل الناس المسيح وبالتالى أخلاق المسيح وصفاته ، فقد يكون هذا معناه أن البشرية تجاوزت نفسها ، وتجاوزت بالتالى كل عجزها ومرضها وموتها ، ودخلت فى طورها الممجد الذى لايمت قط إلى ميراثها الترابى الميت ، هذه هى الخليقة الجديدة للإنسان ، ثم هذه هى قدرة المسيح الإلهية أن يرفع الإنسان فوق ذاته فيتجاوز عجزه ويدخل بقوة المسيح وحياته الفعالة إلى مجال الفعل والحرية الإلهية ، فيستجيب الإنسان إستجابة حرة واعية فرحة لله ولكل إيحاءاته بدون قصور وبدون كلل ، هذا هو مستقبل الإنسان الجديد فى المسيح ، وهذا هو ميلاده الجديد ، لذلك دعى المسيح بحق آدم الثانى !! .

إذن كيف نولد لله بدون مسيح ؟ هذا مستحيل .

ثم لاننسى إطلاقاً أن المسيح أسس عمله فى البشرية على أساس الصليب ، والصليب وإن كان قد دخل حياة المسيح كفعل فداء بالدرجة الأولى إلا أنه سلمه لنا كنموذج حياة وسلوك ، فالذى لا يعيش بمبدأ الصليب لن يدرك عظمة المسيح التى بلغها بالصليب ، ولن يفهم ويقدر معنى الفداء الحقيقى ، أما إذا اختبرنا الصليب فى حياتنا وتذوقناه عن وعى وسرور ، فإن ذلك سيكون المدخل السرى لمعرفة المسيح ومعرفة عظمة قدرته الفائقة نحونا ! ثم من خلال شركة آلام الصليب ندخل مع المسيح فى عهد أبدى كوارثين لكل أمجاد وتعزيات الآب فى السماء[1] .

يا لسر المسيح ! بل يا لسر الإنسان فى المسيح ! .

1

حاجتنا إلى المسيح – الأب متى المسكين – دير القديس أنبا مقار – طبعة ثانية 1987 .